فى الأدب العربى

بديع الزمان الهمذانى (١)

بقلم أديب معروف

— ٢ —

رحلاته الى الأقاليم الشرقية ووفاته بهراه

بعد أن يقضى الزمان لبانته ، يترك نيسابور ، وهو أعلى منزلة مما كان يوم دخلها ، ثم هو عملا بقوله (الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه ، وإذا سكن متنه ، تحرك نتنه ، وكذلك الضيف يسمج لقاؤه ، إذا طال ثواؤه ، ويثقل ظله ، إذا انتهى محله) يأخذ فى السفر ، ويديم التنقل ويطوف البلاد ، وهو يشعر بالنصر ، وعلو القدر ، فلا يترك مدينة شهيرة من مدن خراسان وسجستان والسند إلا ويحلها : وفى رحلاته يتصل بالأمراء ويمدحهم ، وينال من منحهم ما لم يكن يحلم به ، ثم يحط رحاله بهراة ، وإليها ينتهى سيره ، وبها تدركه منيته ، وتجنباً الاطالة لا نريد أن نذكر لك من هؤلاء الأمراء الا أميرين :

(١) خلف بن أحمد أمير سجستان الخارج على الدولة السامانية المتوفى سنة ٣٩٩ ويرجع نسبه إلى عمرو بن الليث الصفارى صاحب سجستان ، وبديع الزمان يمدح خلفاً هذا بقصيدة مطلعها :

سماء الدجى ما هذه الحدق النجل ... أصدر الدجى حال وجيد الضحى عطل

وفيها يقول :

ويا ملكا أدنى مناقبه العلى ... وأيسر ما فيه السماحة والبذل

هو البدر إلا أنه البحر زاخر ... سوى أنه الضرغام لكنه الويل

(١) تتمة البحث الذى نشر فى الجزء الرابع

محاسن يبديها العيان كما ترى وإن نحن حدثنا بها رفع العقل
فقولا لوسام المكارم باسمه ليهنك ان لم تبق مكرمة غفل(١)
وجاراك أفراد الملوك الى الندى وحقاً لقد أعجزتهم ولك الخصل(٢)
سما بك من عمرو ويعقوب محتد كذا الاصل مفخورا به وكذا النسل

(٢) السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى صاحب السند وخراسان ، المتوفى سنة ٤٢١ . وقد كان بديع الزمان يتتبع خطواته ، ويتعرف حركاته وسكناته ، ويهنئه بفتوحاته ومما قال فى مدحه قصيدة شهيرة هى :

تعالى الله ما شاء وزاد الله إيمانى
أأفريدون فى التاج أم الأسكندر الثانى
أم الرحبة قد عادت إلينا بسليمان
أظلت شمس محمود على أنجم ساسان
وأمسى أهل بهرام عبيداً لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطاناً على منكب شيطان
فمن واسطة الهند إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند إلى أقصى خراسان
على مقتبل العمر وفى مفتتح الشان
فيوما رسل الشاه ويوما رسل الخان
فما يغرب بالمغرب عن طاعتك اثنان
لك السرج إذا شئت على كاهل كيوان
أيا والى بغداد وياصاحب غمدان
تأمل مائتى فيل على سبعة(٣) أركان
يقلبن أساطين ويلعبن بثعبان(٤)

(١) غفل : مكان خالية .
(٢) الخصل : الخطر الذى يراهن عليه : يقال أحرز فلان خصله إذا غلب .
(٣) أراد بالسبعة أركان أركان الجيش وهى القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة .
(٤) الغرض من الثعبان هو خرطوم الفيلة لأنه يشبه الثعبان فى طوله وتلويه .

عليهن تجافيف (١) يشهرن بألوان
ويأجوج ومأجوج من الجند تموجان

مواهب بديع الزمان

يكاد يجمع علماء الأدب على أن بديع الزمان كان واحد عصره ، وأعجوبة دهره ، وأنه قد وصل فى الكتابة الفنية الى منزلة لم يصل اليها أحد من قبله ، ولا من بعده ، وينقل إلينا هؤلاء الأدباء فيما ينقلونه أنه كان يأتى بالعجائب ، ويظهر المعجزات ، لاسيما إبان مهاجاته للخوارزمى .

ومهما يكن فى الأخبار التى نقلت الينا عن بديع الزمان ، وعن العجائب التى كانت تصدر عنه ، والمعجزات الأدبية التى تظهر على يديه ، فأننا لا ننكر عليه فضله اذ أنه فيما وصل الينا من نظمه ونثره ما يدل على أنه كان كاتباً مجيداً ، حاضر الذهن ، قوى العارضة ، حاد الذاكرة ، ولكن يجدر بنا أن نتساءل عما عساه أن يكون ، فيما يرويه الرواة عن بديع الزمان من مبالغة .

معقول أن ينظر بديع الزمان لأول مرة الى أربع أوراق ، أو خمس مكتوبة ، ثم يقدر على اعادة ما فيها بدون أن يخطئ ، ومعقول أن يطلب منه نقل ثلاثة أو أربعة من الابيات الفارسية الى العربية شعراً مع تعيين البحر والقافية فيفعل .

ومعقول أن يقترح عليه معنى من المعانى ، فينشئ فيه رسالة ، مبتدئاً بآخر السطور منتهياً بأولها ، كل هذا معقول ، وكله يبرهن على حدة ذاكرة ذلك الأديب ، وقوة عارضته .

ولكن لاينبغى لنا أن نبالغ فنقول إنه كان يعيد مايقرأ بدون أن يخطئ حتى ولا فى حرف منه ، أو نقول انه كان ينقل القصيدة الفارسية الى أخرى عربية لوقته وساعته ، فيأتى شعره عربياً جيداً ، أو ندعى أنه كان ينشئ الرسائل التى كانت تقترح عليه على الفور بدون أن تعطى له فرصة للتفكير — نعم لاينبغى أن نبالغ بل يجب ألا نقبل قول من ينقل هذه المبالغات الا على أنها مبالغات . ولو أنا رجعنا إلى مصادر هذه الرواية لوجدناها محصورة جداً لا تتجاوز يتيمة الدهر ، وما رواه بديع الزمان عن نفسه فى رسائله ، أما الثعالبى صاحب يتيمة الدهر (٣٥٠—٤٣٩) فانه معروف بالمبالغة فى اطراء أهل عصره . وأما ما كتبه بديع الزمان عن نفسه ، فلا يمكن أن ينهض دليلا على صدق كل ما فى هذه

الرواية من التفصيلات ، ولأمر ما أهمل ابن خلكان كل هذه المعجزات . كأنما يشير بذلك إلى أنه لا يثق بما نقل عنها . فنحن نرجح أن فى هذه الرواية مبالغة فى تفصيلاتها لا فى أصلها .

نثره :

ولكنا مع ذلك لا نجحد فضل بديع الزمان ، ولا ننكر تقدمه على غيره من كتاب عصره ، فرسائله تشهد بعلو كعبه وارتفاع منزلته ، ومقاماته تدل على تفوقه ومقدرته النادرة المثال . والحريرى مع تأخره فى الزمان ، يشهد لأستاذه بالفضل . ويعترف له بالسبق ، ويكفيه فخراً أن لقب ببديع الزمان .

رسائله :

وأول ما يلفت نظر القارئ لها سعة اطلاعه ، وغزارة مادته اللغوية ، وقدرته على جمع شوارد الألفاظ ، والتأليف بين نوادر الكلمات ، وصوغ بديع الجمل ، وحسن اقتباس الآيات القرآنية ، والابيات الشعرية ، والأمثال العربية ، والاتيان بها فى موضعها ، كل هذه مع حسن النظم ورشاقة الأساليب ، ودقة التعبيرات ، مما يدل على ما فى طبعه من رقة ، وفى روحه من خفة ، وفى مزاجه من اعتدال ، ولا بدع فقد خلعت عليه اللغة الفارسية عذوبتها ، واكسبته البيئة الايرانية نضارتها وبهجتها . وأخلق بمن اختلط بالأمراء ، وحضر مجالس الأمراء أن يكون رقيق الشعر ، دقيق الحس ، فصيح المقال .

وبديع الزمان ممن استخدموا النثر فى الأغراض الشعرية ، كالمهاجاة ، والمفاخرة ، والاستجداء ، والمدح ، والاستعطاف ، وله مجموعة رسائل مطبوعة مشروحة كثيرة العدد كتبت فى فنون شتى كالشوق ، والشكر ، والشكوى ، والعتاب ، والتهنئة والتعزية ، والحكم .

نماذج من رسائله :

قد مر عليك بعض رسائل البديع . ولكنا نود أن نورد عليك صوراً أخرى من نثره لتتبين صحة ماقلناه عن مقدرته .

فمن أعذب اعتذاره ورقيق استعطافه . ما كتب به الى القاسم الكرجى ، وهو قوله :

يعز على أطال الله بقاء الشيخ الرئيس ، أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى دون وصولى ، ويرد شرعة الأنس كتابى قبل ركابى . ولكن ما الحيلة

والعوائق جمة .

وعلى أن أسعى وليـ ـس على إدراك النجاح

وقد حضرت داره ، وقبلت جداره ، وما بى حب الجدران ، ولـكن شغفاً بالقطان ، ولا عشق الحيطان ، ولـكن شوقاً الى السكان ، وحين عدت العوادى عنه أصليت ضمير الشوق على لسان القلم ، معتذراً الى مولاى عن تقصير وقع ، وفتور فى الخدمة عرض . ولـكنى أقول :

إن يكن تركى لقصدك ذنباً فكفى ألا أراك عقابا

ومما قاله فى الاستمناح ما كتبه الى بعض أصدقائه وهو :

لك أعزك الله عادة فضل فى كل فصل ، ولنا شبه مقت فى كل وقت ، ولعمرى أن ذا الحاجة مقيت الطلعة ، ثقيل الوطأة ، ولـكن ليسوا سواء .

ومما قاله فى الشكوى ما كتبه الى أبى نصر الميكالى . يشكو اليه خليفته بهراة وهو :

أطال الله بقاء الشيخ الجليل: الماء إذا طال مكثه ، ظهر خبثه ، واذا سكن متنه ، تحرك نتنه ، كذلك الضيف يسمج لقاؤه ، إذا طال ثواؤه ، ويثقل ظله ، إذا انتهى محله ، وقد حلبت أشطر الدهر خمسة أشهر بهراه ، وان لم تكن دار مثلى لولا مقامه ، وما كانت تسعنى لولا ذمامه ، ولى فى بيتى قيس بن الملوح (الذى هو مجنون ليلى) مثـل صدق ، وإن صدر مصدر عشق :

وأدنيتنى حتى إذا ماسبيتنى بقول يحل العصم سهل الأباطح
تجافيت عنى حيث لا لى حيلة وخلفت ماخلفت بين الجوانح

نعم قنصتنى نعم الشيخ ، فاسا علق الجناح ، وقلق البراح ، طار مطار الريح لا بل مطار الروح ، وتركتنى بين قوم ، ينقض مسهم الطهارة ، وتوهن أكفهم الحجارة —

ومما كتب البديع الى أبى القاسم الـكرجى يعاتبه قوله :

فأنى وان كنت فى مقتبل العمر ، فقد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهرى البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصافحت يدى النفع والضر . فالى صغرت هذا الصغر فى عينه ، وما الذى أزرى بى عنده حتى احتجب ، وقد قصدته ، ولزم أرضه ، وقد حضرته ، وأنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل ، أو يجحد فضل العلم ، أو يمتطى ظهر التيه

على أهليه ، وأسأله أن يختصنى بفضل اعظام إن زلت بى قدم فى قصده مرة والسلام .

وكتب يهنئ بمولود وهو من جيد ماقال :

حقاً لقد أنجز الاقبال وعده ، ووافق الطالع سعده ، وان الشأن فيما بعده ، وحبذاً الأصل وفرعه ، وبورك الغيث وصوبه ، وأينع الروض ونوره ، وحبذاً سماء أطلعت فرقداً ، وغابة أبرزت أسداً ، وظهر وافق سنداً ، وذكر يبقى أبداً ، ومجد يسمى ولداً وشرف لحمة وسداً .

أنجب الأيام والداه به إذ نجلاه فنعم ما نجلا

وكتب يعزى بعض الرؤساء :

إذا ما الدهر جر على أناس حوادثه أناخ بآخرين

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما فى الدهر عمومه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يدعو الجفلى إذا أساء ويخص بالنعمة اذا شاء — وليتأمل المرء كيف كان قبلا ، فان كان العدم أصلا ، والوجود فصلا ، فليعلم الموت عدلا ، والعاقل من رقع من جوانب الدهر ما ساء بما سر ، ليذهب ما نفع بما ضر ، فان أحب أن يحزن ، فلينظر يمنة ، هل يرى إلا محنة ، ثم ليعطف يسرة هل يرى الا حسرة ، والموت — أطال الله بقاء الشيخ — خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، ونكر قد عم حتى عاد عرفاً ، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها ، وخبثت حتى صار أقل عيوبها .

وإنك لتجد الحكم والأمثال منبثة فى رسائل البديع ، ومن مشهور حكمه : المرء لا يعرف ببرده ، كالسيف لا يعرف بغمده — الحذق لا يزيد الرزق ، والدعة لا تحجب السعة ، الحبل لا يبرم الا بالفتل ، والثور لا يربى الا للقتل — أسفل ما يكون الاريب اذا علا ، ما كل مائع ماء ، ولا كل سقف سماء — النذل لا يألم العذل — كذب القميص ، لا ذنب للذيب فى تلك الأكاذيب — ما كل بيت لله ولا كل محمد رسول الله — ان بعد الكدر صفواً ، وبعد المطر صحواً :

مقاماته :

وللبديع عدا رسائله مقامات تربو على الخمسين ، مطبوعة مشروحة وتمتاز برقة أسلوبها

وسهولة ألفاظها وتراكيبها، وهي قصيرة بالنسبة لمقامات الحريري . وموضوعها يكاديكون واحداً ، وهو الكدية ، والاستجداء بالطرق المختلفة التي يرويها عيسى بن هشام عن أبي الفتح الاسكندري ، ومن جيد مقاماته مقامة تجدها بكتاب « النصوص الأدبية »

وهاك شطراً من مقاماته الخلفية . نسبة الى خلف بن أحمد السابق الذكر ، وفيها يقص عيسى بن هشام قصص صديق له . كان صحبه الى البصرة فيقول :

فلما وصلنا البصرة ، غاب عني أياماً ، فضقت بغيبته ذرعاً ، ولم أملك صبراً ، فأخذت أفتش جيوب البلد حتى وجدته ، فقلت : ما الذي أنكرت ، ولم هجرت ، فقال : إن الوحشة تقدح في الصدر اقتداح النار في الزند ، فان أطفئت بادت وتلاشت ، وان عادت طارت وطاشت ، والقطر إذا تتابع على الاناء امتلأ وفاض ، والعتب إذا ترك فرخ وباض ، والحر لا يعلقه شرك كالعطاء ، ولا يطرده صوت كالجفاء — فمن لقينا بأنف طويل لقيناه بخرطوم فيل ، وأنت لم تغرسني ليقلعني غلامك ، ولا اشتريتني لتبيعني خدامك ، والمرء من علاماته كالكتاب من عنوانه ، فان كان جفاؤهم شيئاً أمرت به ، فما الذي أوجب وان لم تكن علمت به كان أعجب . ثم قال :

ظفرت يدا خلف بن أحمد انه سهل الفناء مؤدب الخدام
أو ما رأيت الجود يجتاز الورى ويحل من يده بدار مقام

شعره :

وللبديع عدا الاشعار التي تتخلل رسائله ومقاماته . قصائد غر طوال . معظمها في المدح ، وقلما تجد قصيدة من قصائده الا وهي مصدرة بالغزل والنسيب ، وهاك نماذج أخرى من شعره غير ما سبق .

قال يمدح أحد الامراء :

طرباً لقد رق الظلا م ورق أنفاس الصباح
وسرى الى القلب العليل عليل أنفاس الرياح
ومليحة ترنو بنر جسة وتبسم عن اقاح
قامت وقد برد الحلى تميس في ثني الوشاح
تشدو وكل غنائها برد على كبد قراح

يا ليل هل لك من صبا ح أم لنجمك من براح
سأريق ماء شبيبتى ما بين ريحان وراح
فيم العتاب ولا لهم غيرى ولا لهم صلاحى
ولعـــاذلاتى فى الملي حة عاذلاتك فى السماح
وهواى للبيض الصبا ح هواك للبيض الصفاح
وولوع كفى بالقـدا ح ولوع كفك بالرماح
وعليك ادمان الندى وعلى إدمان امتداحى
فليعـل رأيك أنه يلوى يد القدر المتاح
وأفخر فانك فى الملو ك لك المعلى فى القداح

وقال يمدح ابن فريفون من الامراء :

ألم تر أنى فى نهضتى لقيت المنى والغنى والاميرا
ولما التقينا شممت الترا ب وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما ن يعلو سحاباً ويرسو ثبيرا
لآل فريفون فى المكرما ت يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغنـــاهم رأيت نعيماً وملكا كبيرا

ومما قاله فى مدح بنى ميكال الفضلاء :

يا غلام الكأس فالياً س من الناس مريح
يا بنى ميكال والجو لعـــلاتى مزيح
شرفاً إن مجال الفضل فيكم لفسيح
وعلى قدر سنا الممدو ح يأتيك المديح
فهناك الشرف الار فع والطرف الطموح

ومن جيد مدحه قوله :

وكان يحكيك صوب الغيث منسكباً لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقوله :

يا أيها الملك الذى بعساكر الآمال يغزى
خلقت يداك على العدى سيفاً وللعافين كنزا
لا زلت يا كنف الاسـ ـير لنا من الأحداث حرزا

ولم يكن شعر بديع الزمان من الجودة مثل نثره ، ولذلك كان نثره أسير فى الآفاق واكثر جرياناً على الألسنة ، وقلما تجد أديباً نبغ فى الصناعتين ، وبلغ فيهما منزلة واحدة

موازنة :

يعد بديع الزمان فارس حلبة الكتاب فى عصره ، والمتفوق على أهل زمنه وهو وان تأخر به الزمان مقدم على ابن العميد رئيس الطبقة ، ويمتاز عن رجالها بالتزام السجع القصير الفواصل ، والاكثار من استعمال المحسنات البديعية بدون تكلف ، ونحن اذا قارناه بكتاب المقامات وجدناه يربو على أستاذه ابن فارس بغزارة المادة ، وحدة الذاكرة ، وسعة الاطلاع . أما تلميذه الحريرى فقد اعترف له بالفضل ، ولا غرو فقد فضله برقة الألفاظ ، وسلاسة الاسلوب ، وعدم التكلف ، ولذا كان بديع الزمان من ممثلى الطريقة العميدية ، أما الحريرى فهو الى الطريقة القاضلية أقرب ، وهو برجالها أشبه .

الخلاصة :

مما تقدم يتسنى لك أن تستنتج أن بديع الزمان كان أحد الأفذاذ ، وأنه كان كاتباً أولا ، وشاعراً ثانيا ، وأنه كان السابق على أدباء دهره ، المقدم على أبناء عصره المولع بالمحسنات البديعية ، المتفنن فى التراكيب ، المبدع فى الأساليب ، وأنه فوق ذلك كله قد استفاد من بيئة عصره ، ومن الظروف المحيطة به أعظم فائدة ، فلم يترك فرصة الا انتهزها ، فتنقل فى البلاد ، ووفد على العلماء ، ونال الحظوة لدى الأمراء ، ولكن واأسفاه لم يعصمه أدبه من المنية ، ولم يمنعه ماله من شرب كأسها لما حان حينه ، وانقضى أجله مأسوفاً عليه .

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

الى هنا ينتهى بحثنا المختصر فى تاريخ ذلك الاديب ، والله يهدينا سواء السبيل انه سميع قريب ؟

(ح . ع)